

الجامع الجديد بمدينة الجزائر... تحفة معمارية عثمانية

أ/ بوزرينة سعيد

أستاذ مساعد "أ"

المركز الجامعي نور البشير - البيض - الجزائر

كان يوجد بمدينة الجزائر قبل استلاء الإستعمار الغادر عليها في 1830، حسب ألبارت دوفو 13 مسجدا كبيرا، 109 مساجد صغيرة، 32 معبدا، و 12 زاوية¹، تعرضت جل هذه المساجد إلى هدم وتدمير وطمس من طرف السلطات الفرنسية تحت حجة فتح واستقامة الطرقات وإدخال الأضواء والمحافظة على الأمن العمومي وتطوير المنشآت الحضرية وتحسينها من خلال بناء المؤسسات العمومية الكبيرة كالمستشفيات والمسارح والكنائس، ومنها من شوّهت معالمها بتحويلها إلى كنائس كاثوليكية². ولم يبق من هذه المساجد التاريخية إلا القليل، منها الجامع الجديد.

يعد هذا الجامع من روائع الهندسة المعمارية العثمانية بمدينة الجزائر، والذي مازال محافظا على تراثه وأصالته.

■ الموقع:

يقع الجامع الجديد أو الجامع الحواتين وكما تساميه العامة جامع البطحاء في ساحة الشهداء، أما البقعة التي أنجز فوقها الجامع الجديد فكانت مقرا لزاوية مولاي بو عنان التي تضمنت " المدرسة البوعنانية "، قبل سنة البناء، كان محيطها أرقى الأحياء على الإطلاق بمدينة الجزائر، أين يوجد حي القيسارية بزاويته الشهيرة وكانت هذه " الحومة " أيضا مركزا لعدد من الحرف الفاخرة مثل الصياغة والنساجة، كما كان محيط زاوية مولاي بو عنان حيا تكثر فيه المقاهي الشعبية الممتدة حتي حي البحرية³.

■ أصل التسمية:

إنّ تسميته بالجامع الجديد هي عبارة عن صفة له بالنسبة للجامع الأعظم، لأن مدينة الجزائر كان لها قبل تسميته الجامع الجديد مساجد أخرى حنفية بناها الأتراك⁴.

■ تاريخ التأسيس:

شيّد هذا الجامع خلال القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وبالضبط في سنة 1070هـ / 1660م.

تاريخ بناء الجامع، هي الفترة التي كانت فيها مدينة الجزائر تحت حكم الأغوات الذين لم يحتفظوا مبدئيا بزمام تسيير الأمور إلا مدة شهرين، في عهد رمضان باشا.

أمّا الحاج حبيب الذي ذكر اسمه في الكتابة، فقد كان مدير الأشغال والقيم على الجامع، و الذي وصف أيضا في كتابة أخرى غير مؤرخة بصفة المجاهد في سبيل الله أي أنّه قاتل الكفار سواء في صفوف الجيش أو بممارسته القرصنة⁵.

وهو ما يبيّنه الشريط الكتابي المنفذ على الجص، والمثبت بطريقة أفقية على يسار المحراب طول هذا الشريط 1,18م وعرضه 0,21م، نفذت هذه الكتابة بالخط النسخي على طريقة الحفر البارز.

■ النص:

الحمد لله وحده من يتعرف بسبب طلوع المسجد وكيله الحاج حبيب وقمامه سنة 1070.

- القسم الصاعد على يمين المحراب:

أعود بالله من الشيطان الرجيم (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم)

- القسم الأفقي:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد أما بعد رحمكم الله قد اجتهد في بنيان هذا المسجد عبد اله الراجي.

- القسم النازل على يسار المحراب:

عفو مولاه المجاهد في سبيل الله الحاج حبيب.

يتربع الجامع الجديد على مساحة تقدر ب 1372م² ، وقد نسجت حوله أسطورة غريبة، مفادها أنّ من وضع تخطيطه كان من الأسرى النصارى⁶.

وكان بناء الجامع بطلب جنود الأتراك الذين شاركوا في عملية البناء، وعلى نفقة جمعية سبل الخيرات التابعة للمذهب الحنفي⁷.

■ وصف الجامع:

- الوصف الخارجي للجامع:

يظهر الجامع الجديد من الخارج ناصع البياض وفخم المنظر، يندھش القادم من المرسى لمراه من حيث التخطيط فهو من الطراز العثماني الوافد، حيث يتخذ شكل شبه مربع يتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، يبلغ طوله 40م، وعرضه 25م.

وللجامع أربعة أبواب، الأولى تفتح في الواجهة الغربية الجنوبية وقد سدّها الإدارة الفرنسية فيما بعد، أمّا الثانية فإنّها تفتح على الرواق المنحدر الذي يصعد من المرسى، وقد تحولت قليلا إلى الجنوب إثر الشروع في أشغال على شارع لامبيراتريس⁸.

وقد كتب عليها مقاطع من قصيدة البردة و هي كالتالي:

بشرى لنا معشر الإسلام أن لنا من العناية ركنًا غير منهدم

لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرّسل كنا أكرم الأمم

و على الوجه الداخلي لنفس الباب كتب عليه ما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم كتبه أحمد بن علي، وفي نقش منفصل آخر ما يلي "

أبشر بما ترتجي من خير مولاك يا دخيل المسجد الله يركاك

كل يد مسكتني من كل آفة كل عين نظرتني ضوءها دأيم معافة

السرور والأفراح في المسا و الصباح كتبه أحمد بن علي.

كما كانت على بعض الأبواب كتابات بالتركية (العثمانية)، ولكنها خربت سنة 1846م من قبل متعصب مسلم عندما كان عالم فرنسي يحاول فهمها.

أمّا المئذنة فتقع في الركن الشمالي الشرقي، يبلغ ارتفاعها 29.50م و بعد عمليات الرّدم التي قامت بها الإدارة الفرنسية هناك أصبح ارتفاعها 25م فقط. كما وضعت أثناء ذلك ساعة كبيرة على المئذنة سنة 1853 صنعت في مصانع واغرن Wagner و أنّ الأهالي قد عارضوا بشدة إلصاق الساعة بالمئذنة وأظهروا مشاعر هائجة⁹، وفي سنة 1857 علّقت على الجامع ثلاثة نواقيس تزن على التوالي 50، 80 ، 120 كغ ، واستخدم الجيش الفرنسي المبنى الأرضي من الجامع كمخازن في سنة 1864م، وفي هذا التاريخ

استلمها الدومين فأجزها إلى الخواص، فأسلمها السيد " سيماتو Cimato وفي 14 جوان من كل سنة (عيد الثورة الفرنسية) تعلق الأعلام الفرنسية على الجامع الجديد¹⁰ .

- الوصف الداخلي للجامع:

بيت الصلاة بالجامع الجديد يأخذ شكل شبه مربع 40م على 25م، أمّا سمك حوائطه فهو حوالي متر، به ثلاث بلاطات وخمسة أساكيب مدعم بثماني دعامات ضخمة، وأنّ المساحة التي يغطيها القبوان المهدبان (البلاطة الوسطى والأسكوب الثاني) هي الأكبر.

تظهر القبة المركزية في الجزء الأوسط من الأسكوب الثاني بعد أسكوب جدار القبلة، يبلغ قطرها حوالي 10م، وارتفاعها 24م، تتخلل هذه القبة أربع نوافذ، ويعلو الجزء المقبب من الخارج ثلاث تفافيح تنتهي بهلال. (الصورة 1).

أمّا من الداخل فهي تقوم على أربعة عقود ضخمة، زيّنت الفراغات الناتجة بين كل عقدتين اثنتين بزخارف هندسية، وتمثلت منطقة الانتقال في الحنايا الزّكنية على هيئة مثلث به زخارف نباتية. (صورة 2). نجد عقود الجامع الجديد بشكلها النصف الدائري، مع استعمال المثلثات الكروية كوسيلة انتقال وهي بسيطة جدا وخالية من المقرنصات. (صورة 3).

كما نجد أيضا دكة المبلّغ يتم الصعود إليها بواسطة مدخل ودرج المنبر الخشبي، تقوم هذه الدكة على أربعة أعمدة حجرية وهي نفسها الموجودة في جامع صفر بن عبد الله. (صورة 4).

وبجدار القبلة يوجد المحراب المجوف الذي تتخذ تجويفاته شكل المضلع، وعدد أضلاعه سبعة وتبلغ فتحة الحنية 2,20م، أمّا عمقها 1,30م وهي مسقوفة برقع قبة، ولقد كسي المحراب ببلاطات خزفية في القسم السفلي كلها مستوردة، يعود أصلها إلى أوربا (إيطاليا ، هولندا، "دلفت")¹¹ ، (شكل 1) و (صورة 5).

بينما القسم العلوي مزّين بزخارف جصية بنوعها الكتابية والنباتية، ويكتنف المحراب عمودان رخاميان يقومان بحمل الإطار المعقود بعقد حلزوني متجاوز.

وكان أول من خطب في هذا المسجد الشيخ كراباش الأفندي العالم الذي جاء من تركيا ونظرا لمكانته المرموقة فقد كان محل إثارة غيظ القادة و الحكام، و قد انتهى به المطاف أن نفي من البلد كما كان للجامع مصحفا يعتبر تحفة نادرة وجميلة بزخرفتها وخطها، أهدها سلطان استانبول إلى باشا الجزائر والذي كان موجودا بالجامع الجديد وهو اليوم محفوظ في المتحف الوطني للآثار القديمة¹² .

أمّا المئذنة فبنيت في الركن الشمالي الغربي من الجامع وهي مربعة الشكل، تتبع في ذلك نفس النظام السائد في المآذن المغربية، وهي مكونة من قسمين، قسم يضم بدن المئذنة، والقسم الآخر يضم رأسها وهي مؤخرة المئذنة، فبدنها يتكون من أربعة أجزاء، ويفصل كل جزء عن الآخر بروز الجزء الأسفل يضم باب المئذنة من فوق السطح وهو خال من الزخرفة، فرأس المئذنة يتكون من الجوسق، ذو المسقط المربع، ويتوج باثنتي عشرة شرفة، ويعلوه قببية، تتوجها ثلاث تفافيح معدنية. (صورة 6).

منبر الجامع جميل أعد للخطيب وهو من المنابر الرخامية الثابتة يوجد على يمين المحراب وهو مصنوع دون شك في إيطاليا على حساب الدولة وقد جلب هذا المنبر من جامع السيدة بعد أن هدم سنة 1832م، فهو يتميز بتنوع زخرفي، منها الزخارف المتأثرة بالزخرفة الأوربية المتمثلة في الباروك والروكوكو. (صورة 7).

❖ الطراز المعماري للجامع الجديد:

■ الطراز الوافد:

كان للحكم العثماني لمدينة الجزائر تأثير مباشر على الحركة والإنتاج المعماري، وما طراز المساجد ذات القبة المركزية إلا دليل على هذا التأثير الذي لم يعرف المغرب الأوسط طرازاً مماثلاً له من قبل، ولقد أنجز هذا الطراز من المساجد جنباً إلى جنب مع المساجد ذات بيوت الصلاة القائمة على الأعمدة. هذا الطراز في حد ذاته تعددت أنماطه المعمارية وتنوعت أشكاله التخطيطية، ومن أبرز عناصره القبة المركزية.

وقد درس الأستاذ رشيد دوكالي المساجد ذات القبة المركزية وقسمها إلى ثلاثة أنواع:

- قاعة الصلاة مربعة، مغطاة بقبة مركزية قائمة على حنايا ركنية مثل الجامع صفر بن عبد الله.
- قاعة الصلاة مربعة، مغطاة بقبة مركزية، محاطة بأروقة من جميع جهاتها مغطاة بقببيات صغيرة منها جامع كمشاوة الأصلي وجامع القصبة الداخلي (جامع الداوي داخل القلعة)، كما نجد نفس النوع من القبة المركزية في كل من جامع علي بتشين بمدينة الجزائر، وجامع الباشا بوهراو وجامع عين البيضاء بمعسكر، وجامع صالح باي بعنابة.

- بينما التخطيط الثالث، نجد قاعة الصلاة بتصميم مجنح، أي أنّ النصف الأمامي لبيت الصلاة غطته قبة مركزية شبه مخروطية، وعلى محور القبة جناحان، بينما استكمل البيت بمجنبتين مركبتين على الدعامات

المتعامدة، مع مستوى القبة المركزية، ووزعت على الجناحين والمجنبتين قباب متوسطة الحجم ومتنوعة الشكل، بين مخروطية ومضلعة بشكل مستطيل، وطبق هذا النظام المعماري على مسجد الجامع الجديد، الذي أراد صاحبه تقليد التصميم المعروف لدى النظام المعماري المسيحي القديم¹³. (مخطط 1).

التغييرات التي مرّ بها الجامع:

غيّر الفرنسيون اسم الجامع الجديد إلى جامع الصيد البحري، واستولوا على أوقافه الكثيرة التي كانت تشرف عليها مؤسسة (سبل الخيرات الحنفية)، وغيروا من الواجهة البحرية للجامع تماما وغطي عن الأنظار فأصبح عبارة عن دهاليز معتمدة حجبت عن الشمس، واختفى بذلك المنظر البحري الجميل الذي كان المصدر الأول لرشاقة الجامع، كما أغلقوا بابه الذي كان يفتح نحو البحر لد الطريق. (صورة 8).

وقليل هم المهندسون الذين حرصوا في الديكور المعماري الجديد مثل المهندس الكبير سوكار Socard، غير أنّ القضاء والقدر سمحا للجامع الجديد بأن يصمد في وجه كل المؤامرات والطوارئ، وفي وجه كل الكوارث التي تعرضت لها مدينة الجزائر مثل زلزال 1817م والحملتين العسكريتين الإنجليزية في 1816م بقيادة " اللورد إيكسموث " Lord Exmouth، كما سلم من مخططات المهندس شاسيريو Chasseriau في منتصف القرن 19م الذي نقل الشكل المعماري لشارع ريفولي Rue Rivoli الباريسي إلى مدينة الجزائر منشأ بذلك شارع تشي غيفارا وزيفوت يوسف الحاليين¹⁴.



صورة 1/ الجامع الجديد - القبة من الخارج.



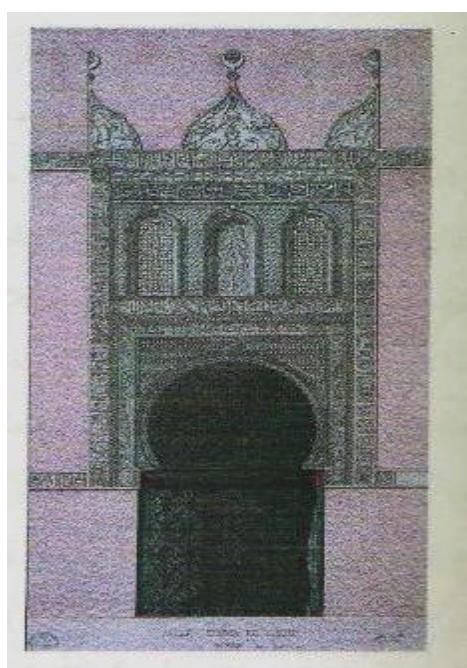
صورة 2/ الجامع الجديد - القبة من الداخل



صورة 3/ الجامع الجديد - العقود التي تحمل القبة المركزية



صورة 4/ الجامع الجديد - المنبر الخشبي ودكة المبلّغ



شكل 1/ الجامع الجديد - رسم لمحراب الجامع الجديد - عن: بالو



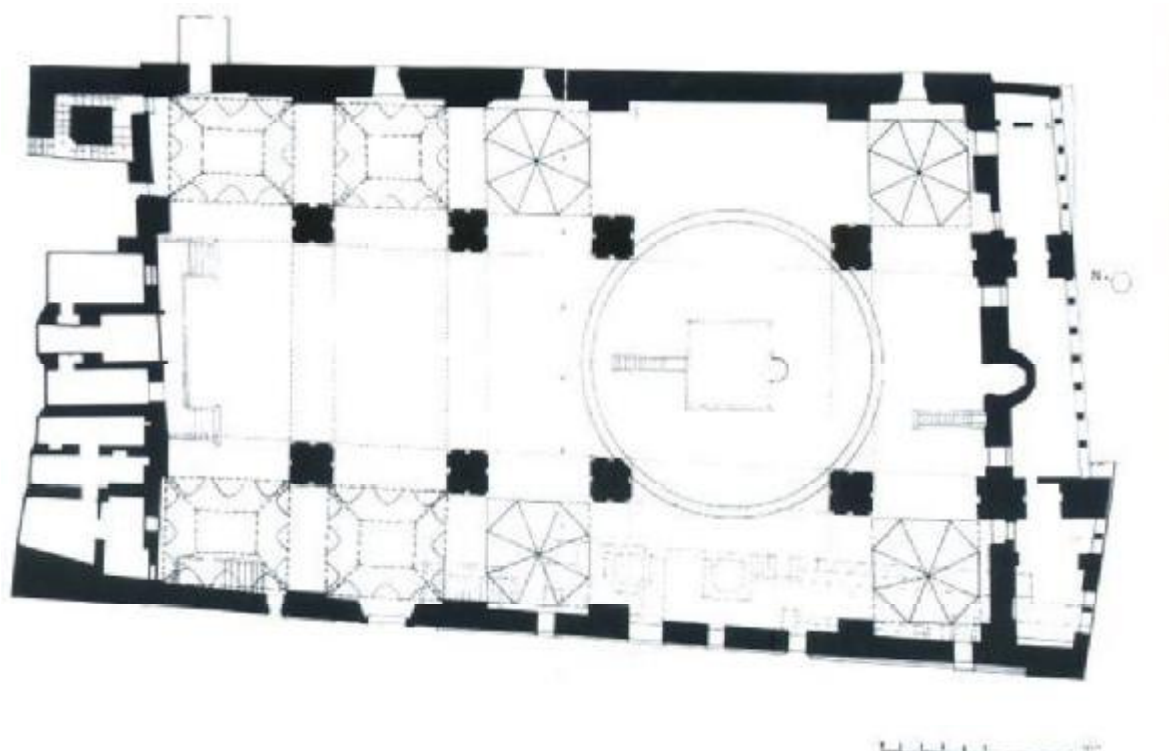
صورة 5/ الجامع الجديد - تجويفة المحراب -



صورة 6/ الجامع الجديد - المئذنة -



صورة 7/ الجامع الجديد - المنبر الرخامي -



مخطط 1/ الجامع الجديد

عن: دوكالي



صورة 8/ الجامع الجديد- منظر من الخارج عام 1850

عن: كلاين

الهوامش والإحالات

¹ Devoulx (A), « Notes historiques sur les mosquées et autres édifices d'Alger », IN. *Revue Africaine*, Alger, 1861, p.389.

² عائشة كردون، المساجد التاريخية لمدينة الجزائر، منشورات ألفا، الجزائر، 2011، ص17.

³ Klein (H.) *Feuillet d'El – Djazair*, Alger, 1937, p.153.

⁴ عبد القادر نور الدين، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، ط2، الجزائر، 1965، ص115.

⁵ Devoulx (A.), Op.Cit, 136.

⁶ Waille (V.), « Autour des mosquées d'Alger », IN. *Revue Africaine*, Alger, 1899, p.09.

⁷ هي مجرد منظمة، على شكل هيئة وإدارة، لها النظر على مساجد المذهب الحنفي والأملأك المحبسة عليها والإعانات والإسعافات التي كانت تعطى للمعوزين المنتسبين لهذا المذهب، وكانت جميع النفقات " المصاريف " من كيس هذه الإدارة التي أنشئت في أواسط الحادي عشر والسابع عشر الميلادي وبقيت إلى حوالي سنة 1841م، حيث تم الاستيلاء عليها من طرف السلطات الاستعمارية، للمزيد من المعلومات، أنظر: عبد القادر نور الدين، المرجع السابق، ص161.

⁸ ينسب هذا الشارع إلى زوجة نابليون الثالث، الذي زار مدينة الجزائر رفقة زوجته " أوجيني " Eugenie، ثم سمي بشارع الجمهورية République في نفس الفترة الاستعمارية، وحاليا يسمى شارع شقيقفارا Ché – Guevara.

⁹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص35.

klein (H.), Op. Cit, p.53 , 54.

10

Ballu (A.), « Quelques mots sur l'art musulman en Algérie », IN. *Revue Africaine*,
Alger, 1904, ¹¹

p.171- 183.

Devoulx (A), « Notes historiques sur les mosquées..... », p.302 – 309.

12

Dokali (R.), *Les mosquée de la période Turque à Alger*, SNED, Alger, 1974, p.37. ¹³

¹⁴ سعد الله فوزي، قصبة الجزائر... الناكرة، الحاضر والخواطر، دار المعرفة، الجزائر، 2007، ص 52.